

أننا في الواقع نستنطق هذه الكتابات ونسيقها ضمن أسبقية معينة، وهكذا تسلب السامع القدرة على السفر على أجنحة الخيال لتصور المعاني واستوضح ما هو مكتوب، ويبدو أن هذا الاعتراض، وجيه فالنص الشعري على سبيل المثال، لا يمكن استيعاب كل طاقاته التعبيرية من دون أن ينشد، ولهذا كان أحمد شوقي يتفادى إنشاد الشعر، لأنه لا يجيده، لقد ظلت الكتابة الوسيلة الأكثر نجاعة، عبر التاريخ، للاتصال الثقافي، ولكن هذا لا ينفي كونها، في مجتمعات متخلفة، وسيلة ترف تعني نخبة اجتماعية، ولهذا تتمسك الفئات الاجتماعية الأخرى بالشفوية في أية ممارسة إبداعية، أو نشاط ثقافي . . أو مظهر من مظاهر الاحتفالية.

وعلى الرغم من معرفتنا للكتابة، وممارستها لها، فإننا لم نستطع التخلص من الشفوية، فهي شيء متجذر فينا، هذه الشفوية التي تتجسد في المخبر لا في المظهر، أي في التفكير طورا، وفي السلوك طورا آخر، وذلك على الرغم من التعلم والتبحر في أصول المعرفة بحكم الوراثة الشفوية التي تظل عالقة بالشخص كالطبيعة اللازبية، والجبلة المتحكمة من وجهة، وبحكم الانتماء العام إلى المجتمع النصف الشفوي من وجهة أخرى" (6).

وربما يعود هذا إلى أن الكتابة لم تمكننا من الاستفادة من جماليات النصوص الشفوية، لأنها عجزت عن نقلها، ذلك أنها لا تتوفر على تقنيات الشفوية التعبيرية لاختلاف المرجعية الثقافية لكل منهما، ثم إن الكتابة لا يمكن أن تشبع إلا في مجتمع مستقر، منظم، متطور، تحكمه علاقات قانونية وضعية، أو علاقات دينية روحية" (7). ومع ذلك، فإنه قد توجد مجتمعات متحضرة تعتمد على الشفوية في ممارستها البشرية لتوفر هذه الأخيرة على وسائل اتصال أكثر نجاعة وأكثر فائدة.

والواقع إذا كانت الكتابة جاءت لترسخ المستوى التقني للمجتمع في مرحلته التطورية، فإن الشفوية أنتجت لها قوانين مؤثرة كثيراً في العملية التواصلية بين البشر، ومن هنا تعجز الكتابة عن نقل جماليات التعبير الشفوية وتقنياتها، مع أننا ندون كل شيء مهم ونسجله، فهل يمكن للكتابة تدوين الشفوية، أو هل نستطيع نقل التراث الشفوي للمجتمع إلى تراث مكتوب؟

لعل ليس بالإمكان أن نقوم بهذا العمل، فالشفوية جماليات صوتية تعجز الكتابة عن نقلها، بالإضافة إلى اختلاف المرجعية الثقافية لكل منهما، كما سبق